المحاضرة الثانية

الوقائع الاقتصادية في العصور القديمة

(النظام المشاعي البدائي– النظام العبودي)

ميز مؤرخو التاريخ الاقتصادي بين نظامين اقتصاديين سادا خلال مرحلة العصور القديمة هما: النظام المشاعي البدائي (النظام العشائري) والنظام العبودي (نظام الرق):

أولا: النظام المشاعي البدائي: يعتبر نمط الانتاج البدائي اول نمط أنتاج عرفه التاريخ الاقتصادي ويمكن توضيح الخصائص العامة لهذا النظام فيما يلي:

1– تطور أدوات العمل:

- استعمل الإنسان الأول لأول مرة الحجر غير المصقول والعصا، الأول كان امتدادا للقبضة والثاني كان امتدادا للذراع. ومن هنا بدأت سيطرة الانسان على الطبيعة ببطء؛
- كانت الحياة مقتصرة على جني الثمار والقنص بشكل جماعي؛
- اكتشاف النار يعتبر نصرا هائلا للإنسان ضد الطبيعة: حيث كان في البداية يحفظ النار المشتعلة عفويا في الطبيعة، ثم تعلم بعد ألاف السنيين كيف ينتجها. وقد بدلت النار شروط الحياة المادية للإنسان بعمق فقد مكنته من طهي طعامه، والوقاية من البرد، ولكن الأهم هو أنها مكنته من صنع أدوات إنتاجية جديدة وأكثر اتقانا؛
- لقد كان الحجر المادة الرئيسية لصنع الأدوات ولهذا سمي العصر بالعصر الحجري حتى تم اكتشاف المعادن ليتعلم الانسان صنع الأدوات من المعدن، أولا النحاس ثم البرونز وبعده الحديد ولهذا سمي العصران اللاحقان بالعصر البرونزي والعصر الحديدي؛
- سجل اختراع القوس والسهم مرحلة هامة في اتقان صنع أدوات العمل مما مهد لمرحلة تربية المواشي بشكلها البدائي (حيث بدأ الانسان بالكلب أولا ثم الماعز و البقر، فالخنزير ثم الحصان)؛
- الزراعة البدائية سجلت تقدما هاما في تطور قوى الانتاج وقد تعلمها الانسان بملاحظة نمو النباتات في الطبيعة، وأدى استخدام الأدوات المعدنية الى ازدياد إنتاجية العمل الزراعي؛

2– علاقات الانتاج في المجتمع البدائي:

- كانت الملكية المشتركة لوسائل الانتاج أساس العلاقات الإنتاجية والسبب في ذلك يعود أولا إلى بدائية أدوات الإنتاج والثاني هو ضعف الفرد المنعزل؛

- لم تكن الملكية الفردية موجودة إلا في وسائل الدفاع فقط لضرورة استعمالها فرديا؛
- كان الناس يعيشون في مجتمعات منعزلة (مشاعيات)[*†] وكان العمل الجماعي محصورا داخل المشاعة؛
- كان التقسيم الوحيد للعمل هو التقسيم الطبيعي أي تبعا للجنس (رجال–نساء) والسن. فمثلا كان الصيد من اختصاص الرجال، وجني الثمار والاهتمام بشؤون المنزل من اختصاص النساء؛
- كانت ثمار العمل (المواد الاستهلاكية المنتجة) مشتركة؛
- كانت طريقة التوزيع هي المساواة التامة في توزيع منتجات العمل المشترك؛
- لم يكن بالإمكان انتاج أي فائض (إنتاج اضافي) يزيد على أبسط ضروريات الحياة، وبالتالي انعدام الاستثمار والاستغلال أو الطبقية التي تتصارع حول تملك فائض الانتاج؛

3– بداية التقسيم الاجتماعي للعمل وبداية التبادل:

- ظهر التقسيم الاجتماعي للعمل مع ظهور تربية المواشي وزراعة الأرض حيث حصل تخصص في العمل على أساس المشاعيات نفسها وظهرت مشاعة الرعاة ومشاعة الزراعة.
- كانت أهم نتيجة لهذا التقسيم الاجتماعي للعمل هو نشوء وتطور التبادل بين المشاعيات، ثم بدا نطاق التبادل يتسع مع ظهور تقسيمات اجتماعية أخرى للعمل نتيجة تطور أدوات الإنتاج فظهرت مهن صنع الأواني والحياكة وصنع الأدوات والأسلحة الحديدية.

4– تفكك النظام المشاعي البدائي: السبب الرئيسي الذي ساهم في تفكك المشاعية البدائية هو أن علاقات الانتاج السائدة فيها (الملكية المشتركة، العمل الجماعي، والتوزيع المتساوي) أخذت بالانحلال والاندثار وذلك بسبب:

- تطور أدوات الانتاج أدى إلى ارتفاع انتاجية العمل (انتاج فائض) وأصبح الانتاج في الزراعة والرعي ضمن نطاق أضيق من المشاعة وهو الأسرة التي أصبحت الوحدة الاقتصادية للمجتمع، وهذا يعني ظهور العمل الخاص ليحل تدريجيا محل العمل الجماعي المشترك.
- العمل الخاص أدى بالضرورة إلى ظهور الملكية الخاصة لوسائل الانتاج التي بدأت أولا بالماشية ثم امتدت الى جميع وسائل الانتاج الأخرى وكانت الأرض آخر ما دخل في نطاق التملك الخاص.
- لقد أدت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج الى تغير كامل في بنيان المجتمع البدائي، حيث أدت الى ايجاد مصالح مختلفة داخل الوحدة الاجتماعية والاقتصادية والى تولي مالكي أدوات الانتاج المناصب الاجتماعية الأساسية

[*] وحدات عشائرية وهي وحدات جماعية تربطها رابطة الدم، وهي أضيق نطاقا من القبيلة.

†

وانفصالهم عن باقي أفراد الوحدة ومن ثم نشوء الأسر الأرستقراطية التي أصبحت تتوارث الحكم وتستعبد الآخرين.

- تطور قوى الانتاج أدى إلى ظهور فائض في الانتاج يزيد عن الحاجة، والمصدر الوحيد لهذا الفائض هو العمل البشري، وبهذا ارتفعت قيمة العمل ارتفاعا كبيرا مما أدى الى ضرورة عدم قتل الأسرى والاكتفاء باستعبادهم ثم توسع نطاق الاستعباد الى أفراد القبيلة نفسها وهكذا اختفت نهائيا علاقات الانتاج المشاعية لتحل محلها علاقات إنتاج جديدة.

ثانيا: النظام العبودي

هناك محاولات من بعض المؤرخين لقصر النظام العبودي على تاريخ أوروبا فقط، واستبعاده عن تاريخ الشرق القديم (الادنى والأقصى). إلا ان هناك محاولات أخرى وبالتحديد في الدراسات الحديثة تؤيد عمومية هذا النظام في العصور القديمة في الشرق والغرب. ولهذا سوف نتطرق في هذا الموضوع لأنظمة الرق في المجتمع البابلي والمجتمع المصري القديم، المجتمع اليوناني، المجتمع الروماني.

1- **المجتمع البابلي**: تميز بالخصائص التالية:

- علاقات الإنتاج انحصرت في ملكية مالكي العبيد التامة لجميع وسائل الانتاج؛
- قوى الإنتاج تطورت بشكل ملحوظ حيث استخدم في الزراعة وعلى نطاق واسع الأدوات المعدنية؛
- الحرف: أخذت أدوات الحرفيين تزداد اتقانا وتعددت أنواع التخصصات الحرفية، فانتشرت الحياكة بشكل واسع وكان المواطنون الأحرار هم الذين يزاولون الحرفة بينما العبيد استخدموا في أعمال البناء والأشغال الشاقة؛
- التجارة و صناعة السفن: مع تطور التجارة البحرية أخذ الاهتمام بصناعة السفن لنقل وتبادل المنتجات، ولهذا أخذ الانتاج يكتسب طابع التبادل السوقي (الانتاج من أجل البيع في السوق) بعد أن كان انتاجا يهدف لسد الحاجات.
- النقود: تعرف المجتمع البابلي على المصارف 2200 قبل الميلاد وكان للعمليات المصرفية أهمية بالغة مما دفع المملكة الى تشريع قانونها الشهير بتحديد الفائدة القصوى على المحصولات الزراعية بنسبة 30% وحددت فائدة النقود بنسبة 12% إلى 20% .

2- **المجتمع المصري**:

- اقتصار الكتابات المصرية القديمة على تسجيل الأفكار الفلسفية والدينية وكل ما يتعلق بتنظيم الحكم، وتقسيم الطبقي للمجتمع؛

- الحياة الاقتصادية بصفة خاصة تستند على السيطرة الأبوية؛
- الأرض هي المظهر الأساسي للثروة؛
- تحتل الزراعة المرتبة الأولى في ترتيب أوجه النشاط الاقتصادي؛
- -التجارة مجازة وغير محرمة؛
- منع أخذ الفائدة؛
- الملكية الخاصة قائمة على أساس الأرض؛

3- المجتمع اليوناني: اليونان تسمية تطلق في القديم على الجزء الجنوبي من جزيرة البلقان وامتدت إلى شواطئ آسيا. في البدايات الأولى للحضارة اليونانية كان الاقتصاد يعتمد على الأنشطة البسيطة، وكانت العلاقات الاقتصادية بسيطة وغير معقدة .ولكن مع تقدم الزمن توسعت الحضارة اليونانية وازدهرت التجارة الخارجية وتطورت الحياة الاقتصادية نتيجة لذلك.

3-1 الظروف الاجتماعية: تميزت الظروف الاجتماعية في المدن اليونانية بوجود تركيب طبقي، حيث قسم السكان حسب مواطنتهم إلى :

أ- المواطنون: يشترط في كل فرد يحمل الجنسية اليونانية ان يكون مولودا أصال من أب وأم يونانيين، إلى انه بمرور الزمن أصبحت المواطنة تمنح لبعض الذين يقدمون خدمة جليلة للدولة مثل قادة الجيش. والمواطنون لهم حق الملكية، وظهرت فيها طبقتين: طبقة كبار المالك وهم قمة الهرم الاجتماعي يمارسون السياسة في أعلى مناصبها ويعيشون على دخل لم يساهموا فل إنتاجه. وطبقة صغار المالك وهم يمثلون أغلبية المواطنين يمتلكون الأراضي الأقل خصوبة ولهم الحق في ممارسة السياسة .

ب- الأجانب: وهم الوافدون إلى اليونان وإقامتهم عادة ما تكون مؤقتة، لا يتمتعون بالحقوق السياسية وليس لهم حق التملك .

ج- العبيد: وهم يمثلون قاعدة الهرم الاجتماعي اليوناني. ولقد عومل العبيد معاملة سيئة، فكان العبد مثل الآلة الإنتاجية يباع، يؤجر. ولم يكن له حق التملك أو بناء أسرة.

3-2 النشاط الاقتصادي اليوناني: لقد تطور الاقتصاد اليوناني تطورا ملحوظا وخاصة بعد القرن الخامس قبل الميلاد. ومن أهم الأنشطة الاقتصادية التي كانت سائدة:

أ- الزراعة: طبيعة الأراضي اليونانية تميزت بقلة الخصوبة وكثرة الجبال والأحجار والجزر مما صعب من عملية التطور الزراعي وظهر ما يسمى بالوحدات الزراعية: وحدات كبار المالك وتضم الأراضي الأكثر خصوبة، ووحدات صغار المالك

تتكون من الأراضي الأقل خصوبة، ووحدات الأفراد وهو قليل وغير منتشر في كل المدن اليونانية، ويقوم على زراعة بعض الأراضي التابعة للدولة .

ب- الصناعة: عرفت الصناعة في المدن اليونانية في شكل حرف لابد من وجودها لضرورة الحياة إليها. ثم بدأ الاهتمام باستخراج المعادن لاستخدامها في الصناعة الحربية، كما ظهرت صناعة السفن تماشيا مع تطور واتساع رقعة الدولة اليونانية.

ج- التجارة: مع اتساع رقعة الدولة اليونانية ازدهرت التجارة الدولية ازدهارا كبيرا وانعكس ذلك على النشاط الاقتصادي بصفة عامة وصناعة السفن بصفة خاصة.

4- **المجتمع الروماني**: يعتبر المجتمع الروماني أوضح مثال على النظام الاقتصادي القائم على الرق، حيث كان المجتمع يتألف من طبقتين:- طبقة الأسياد التي تمتلك الأراضي ومختلف وسائل الإنتاج بما في ذلك العبيد؛

- طبقة العبيد التي تعتبر هي محل ملكية؛

أما بالنسبة للنشاط الاقتصادي فقد كانت الزراعة النشاط الاقتصادي الأساسي بدأت بشكل المزرعة العائلية الصغيرة ثم توسعت بالتدريج لتصبح مزارع كبرى مملوكة لفئات قليلة. أما التجارة فقد انحصر النشاط التجاري في البداية بتبادل المنتجات الريف بمنتجات المدينة (الحرفية) وبعد التوسع الروماني نشطت حركة التجارة وظهرت طبقة التجار وأصحاب رؤوس الأموال وأخذ التحول التدريجي من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد التجاري. كما أدى نمو التجارة والتداول النقدي إلى تطور الرأسمال النقدي الربوي وأخذت تنشأ شركات تقوم بعمليات الإقراض وانتشرت مكاتب الصرافة.

5- **خصائص النظام العبودي**: مما سبق يمكن استخلاص أهم خصائص النظام العبودي:

- الملكية الخاصة لوسائل الانتاج من قبل الأسياد؛
- ظهور أول تقسيم طبقي للمجتمع وهو الانقسام إلى أسياد وعبيد؛
- انفصال الحرف عن الزراعة وهو التقسيم الاجتماعي الثاني للعمل (صناعة —حرف-، زراعة)؛
- زيادة التبادل السوقي الذي أدى إلى:
  - ظهور السلعة أي الانتاج للسوق؛
  - ظهور النقود كمقياس عام لتبادل السلع؛
  - انتشار القروض الربوية؛
- ظهور طبقة التجار وهو التقسيم الاجتماعي الثالث للعمل؛

- ظهور المدن كمراكز للتجار والحرفيين وانفصالها عن الارياف؛
- ازدياد التفاوت في الثروات فكانت النقود، الماشية، أدوات الإنتاج والأراضي تتكدس في أيدي الأغنياء على حساب افقار الأكثرية؛

6- **المراحل الأساسية للنظام العبودي:** مرّ النظام العبودي بثلاث مراحل أساسية هي:

- **المرحلة الأولى:** وهي مرحلة انتقالية بين المجتمع البدائي والمجتمع العبودي تتميز بظهور تقسيم العمل وظهور ظهور الملكية الخاصة والتفاوت الاجتماعي وظهور الطبقات؛

– المرحلة الثانية: وهي مرحلة العبودية المتطورة، تميزت بسيادة علاقات الانتاج العبودية وزيادة العبيد زيادة كبيرة، ففي اثينا عام 309 قبل الميلاد بلغ عدد المواطنين الأحرار 21 ألف مواطن مقابل 400 ألف عبد؛

– المرحلة الثالثة: وهي مرحلة العبودية المتأخرة ولقد تميزت بانحلال المجتمع العبودي بسبب:

* التبذير الهائل في قوى الإنتاج حيث كان مالكو العبيد في جميع البلدان ينفقون القسم الاعظم من عمل العبيد بطريقة غير منتجة(تكوين المنشآت العسكرية، المعابد، القصور، الأهرام،...)؛
* تفجر الثورات والحروب الأهلية المدمرة التي أدت إلى تحطيم القوى المنتجة وإبادة قسم عظيم من السكان؛
* طابع الاكراه في نمط الانتاج العبودي (الاستغلال الوحشي الذي لا يطاق) أدى إلى تدمير القوى المنتجة سواء العبيد الذين يعتبرون القوة الانتاجية الرئيسية أو الحرفيين بسب الضرائب المرتفعة؛

كل هذه العوامل أدت إلى هبوط عام في الإنتاج، اختلال في التجارة، انخفاض عدد السكان، انقراض الحرف. ودخل بذلك النظام العبودي مرحلة الأزمة والركود الكامل التي قضت عليه مفسحا المجال لظهور علاقات إنتاج جديدة.